

الحديث العالي والحديث النازل

وكلّ ما قلّت رجاله علاً وضيّعه ذاك الذي قد تزال الحديث العالي والحديث النازل: قوله: (وكل ما قلت رجاله علا...). العالي والنازل قال النووي: "الإسناد حقيقة لهذه الأمة، وسنة بالغة مؤكدة، وطلب العلو فيه سنة" تدريب الراوي 2/148، وقال ابن كثير: "...وذلك أنه ليس أمة من الأمم يمكنها أن تسند عن نفسها إسناداً متصلًا غير هذه الأمة، فلهذا كان طلب الإسناد العالي مُرغباً فيه، كما قال الإمام أحمد بن حنبل: الإسناد سنة عن سلف...ولهذا تداعت رغبات كثير من الأئمة النقاد، والجهابذة الحفاظ، إلى الرحالة إلى أقطار البلاد طلباً لعلو الإسناد" الباعث الحديث لأحمد شاكر 2/445، 443. قال ابن حجر في النزهة 156: "إنما كان العلو مرغوباً فيه لكونه أقرب إلى الصحة، وقلة الأخطاء، لأنه ما من راوٍ من رجال الإسناد إلا والخطأ جائز عليه، فكلما كثرت الوسائل وطال السنن كثرت مطان التجويع وكلما قلت قلت" اهـ. والعلو في الإسناد خمسة أقسام: الأول: هو القرب من رسول الله عليه الصلاة والسلام بمعنى قلة عدد الرواية، وبطريق عليه العلو المطلق، وهذا القسم أفضل وأجل الأقسام بشرط أن يكون الإسناد صحيحاً خالياً من الضعف. الثاني: القرب من إمام من أئمة الحديث كابن حريج، والزهري، ومالك، وشعبة وغيرهم مع صحة الإسناد. الثالث: العلو إلى كتاب من كتب الحديث المعتمدة المشهورة كالكتب السنتة، وهو على أربعة أنواع: 1- الموافقة، وهي: الوصول إلى شيخ أحد المصنفين من غير طريقه. 2- البديل، وهو: الوصول إلى شيخ شيخه كذلك. 3- المساواة، وهي: استواء عدد الإسناد من الراوي إلى آخره مع إسناد أحد المصنفين. 4- المصادفة، وهي الاستواء مع تلميذ ذلك المصنف، انظر: "نزهة النظر" لابن حجر ص 158-159.

الرابع: أن يكون سبب العلو تقدم وفاة الشيخ، فقد يوجد إسناداً متساوياً في عدد الرواية، ولكن يحكم بالعلو لأحدهما تقدماً وفيات رواه عن الآخر. الخامس: العلو بتقدم السماع، فمن سمع من شيخ قدّماً أعلى ممن سمع من الشيخ نفسه أخيراً. من أقسام الحديث، وتعلق بالأسانيد، ويقال: هذا إسناد عال وهذا إسناد نازل. فالعالى هو الذي قلت رجاله، والنازل هو الذي كثرت رجال إسناده، وقلة الرجال مرغوب فيها عند المحدثين فهم يحبون الحديث العالى دون النازل، وسبب ذلك: أن كثرة الوسائل سبب لكثرة الأوهام؛ لأن إذا كان مثلاً بين الترمذى وبين الرسول -صلى الله عليه وسلم- أربعة، فاحتمال الخطأ من هؤلاء قليل، يعني محتمل أنهما أخطأوا ولكنه احتمال قليل، بخلاف ما إذا كان بينه وبينه عشرة فإنه قد يوجد أحاديث ينزل فيها الترمذى إلى عشرة، وقد يوجد أربعة، فيسمى القليل عالياً، فأقل ما بين الترمذى وبين الرسول -صلى الله عليه وسلم- أربعة، ويسمي الآخر نازلاً إذا كان الإسناد سبعة أو أكثر، وسبب ذلك أن بعضهم يروي عن بعض وهم متقاربون، يروي التابع عن تابعي إلى أربعة أو خمسة أو ستة بعضهم عن بعض، وكلهم متقاربون، وتكثر الوسائل: فلأجل ذلك قالوا: إن العالى أصح وأقوى وأقرب إلى الثقة بهم، وقد كانوا يحرضون على العلو، فكثيراً ما توجد الأحاديث عند الشيخ في بلاده نازلة، فيسافر مسيرة شهر أو أكثر لأجل أن يحصل عليه بإسناد أقل لأنه يسقط عنه رجل. فمثلاً: الإمام أحمد يروي عن عبد الله بن عمر أحاديث ليس بينه وبينه إلا اثنان، يرويها مثلاً عن إسماعيل بن جعفر، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر؛ لأن ابن عمر طال عمره إلى أن توفي في حدود سنة 74هـ وتتلذم عليه عبد الله بن دينار في آخر حياته وحفظ منه علمًا، وطالت حياة عبد الله بن دينار فمات سنة 127هـ، فأداركه بعض مشايخ أحمد كسفیان بن عینة وأسماعیل بن جعفر ونحوهما، فرروا عنه فتكون أحاديثه ثلاثة، حدثنا سفیان بن عینة، عن عبد الله بن دینار، عن ابن عمر، وكذلك أحاديث أنس حيث أدركه الزهري وإن كان الزهري لم يعمّر، أي: ما طالت حياته، ولكن أنساً عمر حتى توفي سنة 93، وعاش بعده الزهري ثلاثة وثلاثين سنة وتوفي في سنة 126 والإمام أحمد يروي عن ابن عينة ويقول: حدثنا ابن عينة، عن الزهري، عن أنس، فأحاديثه عنه ثلاثة أفرد بعض العلماء أجزاء أطلقاً عليها الثلاثيات منها: ثلاثيات الإمام أحمد بن حنبل، وقد شرحها السفاريني وهي مطبوعة، وثلاثيات الإمام البخاري للترمسي وهي مخطوطه. كذلك البخاري عنده الأحاديث الثلاثيات فليس بينه وبين الصحابي إلا اثنان، وبينه وبين الرسول -صلى الله عليه وسلم- ثلاثة، ومنها أحاديث عن أنس يرويها عنه تلميذه حميد الطويل الذي عمر فأداركه محمد بن عبد الله الأنباري، فالبخاري يقول: حدثنا محمد بن عبد الله، عن حميد، عن أنس، فهذا إسناد عال، وكذلك سلامة بن الأكوع عمر يعنى عمراً متوسطاً توفي سنة 74هـ، ولكن تلميذه ومولاه يزيد بن أبي عبيد عمر بعده فأداركه مشايخ البخاري فصار يروي عن سلامة أحاديث ثلاثة، فيقول: حدثنا مكي بن إبراهيم، عن يزيد بن أبي عبيد، عن سلامة بن الأكوع، فهذا حديث عال، فإذا كثرت الرجال فإنه يسمى نازلاً، فقد تجد بين البخاري وبين الرسول -صلى الله عليه وسلم- سبعة أحياناً، ويكون ذلك لأن بعضهم يروي عن بعض وهم متقاربون، فيقول مثلاً: حدثنا عمر بن حفص، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم النخعي، عن علقة بن قيس، عن ابن مسعود، فهذا بينه وبين الرسول -صلى الله عليه وسلم- ستة، وقد يحدث عن بُنْدار، عن عُنْدَر، عن شعبية، عن الأعمش، فهذا إسناد فيه نوع من النزول بالنسبة إلى الثاني، هذه هي الأحاديث العالية والنازلة، ورغبتهم في الأحاديث العالية لقلة الوسائل وقلة الرجال، فقد يسافرون -كما ذكرنا- لأجل سقوط رجل أو رجلين. الإمام أحمد توجد عنده أحاديث في بغداد نازلة، ولكنها توجد عند بعض المشايخ عالية مثل عبد الرزاق، فسافر أحمد من بغداد إلى صنعاء لأجل أن يسمع منه أحاديث هي موجودة عنده في بغداد لكنها نازلة، فأراد أن يأخذها عن عبد الرزاق لتكون عالية، فقد يكون بينه وبين الرسول لأجل قلة الوسائل التي يحصل بسببيها قلة الأوهام. فأنت مثلاً إذا سمعت حدثاً حدث كمرض أو موت فسمعته من واحد شاهده وقال لك: شاهدت فلاناً مريضاً أو شاهدت فلاناً عندما توفى، أو شاهدت البيت الفلاني وقد احترق أو قد انهدم، جزمت به؛ لأنه ليس بينك وبين هذا الحادث إلا واحد شاهده، لكن لو أن هذا الواحد الذي شاهده نقله لك عن خمسة قال مثلاً: أنا ما شاهدته، ولكن أخبرني فلان وهو ما شاهده، ولكن أخبره فلان وهو أيضاً ما شاهده، وإنما أخبره فلان ولم يشاهده أيضاً، وأخبره فلان الخامس الذي شاهده، فكثرة الوسائل قد تُوقع الشك في هذا الحادث هل هو صحيح واقعي أم لا؟ لأن أحدهم قد يكون قاله مازحاً غير مُحَدّ في قوله، وقد يكون مخطئاً على بعضهم، وقد يكون بعضهم قال: نقله لي فلان وهو مخطئ، وقد يكون بعضهم لا يعرف هذا الذي حدثه، إنما قال: يمكن أنه فلان، وليس جزماً؛ فلأجل ذلك كثرة الوسائل يحصل بها وهم وخطأ غالباً، وهذا هو السبب في أن قلة الرجال أقوى. حكم الإسناد العالى والنازل: ثم إن الحكم على السنن بالنظر إلى الرجال، لا تحكم على السنن عالياً أو نازلاً إلا بعد النظر في رجاله، وقد يكون العالى رجاله ضعفاء، ويكون الإسناد النازل رجاله أقوياء، وقد يكون الإسناد العالى أضعف من النازل، رغم أن هذا عال ولكن في رجاله ضعف وهذا عال ورجاله ثقات، فلا تساوي بينهما قال ابن حجر في النزهة ص 157: فإن كان في النزول مزية ليست في العلو، لأن يكون رجاله أوثق منه، أو أحفظ، أو أفقه، أو الاتصال فيه أظهر، فلا تردد في أن النزول حينئذ أولى. اهـ. وقد أفرد مبحث العلو والنزول الإمام ابن طاهر القيسري في جزء أسماء: جزء العلو والنزول في الحديث وقد طبع بتحقيق الشيخ صلاح الدين مقيوم..